Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no1.5
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

العلاقة بين الأدب واللغة والثقافة في النصوص القديمة

The Relationship between Literature, Language and Culture in Ancient Texts

Solehah Yaacob
Department of Arabic Language and Literature, Kulliyyah of Islamic Revealed Knowledge and Human Sciences, International Islamic University Malaysia, Malaysia
solehah71@gmail.com

ملخص

الهدف من هذا البحث مراجعة العلاقة بين الأدب واللغة والثقافة من حيث النصوص القديمة. وليس السؤال المطروح هل القواعد العربية تعد نظاما نحويا معينا تم الاستيلاء عليه، بل السؤال هل وصل العرب إلى المفاهيم اللغوية الأساسية بناء على أسس التفكير التي اتبعتها الصحيح من البيانات على شكل قواعد في غياب أي تأثير خارجي؟ وأما قول المستشرقين بأن اللغة العربية كانت موجودة بعد بعثة رسول الله ﷺ فهو قول منقوض بل هذه اللغة كانت موجودة قبل فجر الإسلام بشكل اللهجات المستخدمة منذ القدم في وادي الرافدين. وستكون هذه الأدلة أهمية بارزة ولعل إسهاما نقديا في الدراسة التاريخية للغة العربية وتطورها. فاكتشف البحث بعض الأدلة على استثناء من تأثرها بالثقافات الأخرى، ومنها: القياس في آيات القرآن الكريم والنثر والشعر العربي وبعض الأمثلة من بعض كتب المترجمين والاستدلال ببعض نماذج اللغة القديمة ورسوماتها لتكون دليلا على أن ما وضع من اللغة العربية وقواعدها من ابتكار العرب وليس من غيرهم. ومتبعة من ذلك المنهج التحليلي اللغوي التاريخي.

الكلمات المفتاحية: اللغة القديمة، القواعد النحوية، حضارة الإنسان، الأدب وتطوره، الثقافة المكتسبة

Abstract

The aim of this research is to review the relationship between literature, language and culture in terms of ancient texts. The question is not whether the Arabic grammar is a particular grammatical system that has been seized, but the question is, did the Arabs reach the basic linguistic concepts based on the foundations of thinking that they followed by correct data in the form of grammar in the absence of any external influence? As for the Orientalists' statement that the Arabic language existed after the mission of the Prophet Muhammad, peace and blessings be upon him (pbuh), it is a contradictory statement. Rather, this language existed before the dawn of Islam in the form of dialects used since ancient times in Mesopotamia. These evidences will be of

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no1.5
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

outstanding importance and perhaps a critical contribution to the historical study of the Arabic language and its development. The research discovered some evidence for an exception from being affected by other cultures, including: analogy in the verses of the Noble Qur'an, prose, Arabic poetry and some examples from some translators' books and inference with some models of the ancient language and its drawings to be evidence that what was developed from the Arabic language and its rules were the innovation of the Arabs and not from others. It follows the historical linguistic analytical method.

Keywords: ancient language, grammatical rules, human civilization, literature and its development, acquired culture

Article History:

Received: *29/05*/2022 Accepted: *29/05*/2022 Published: *31/07*/2022

المقدمة

تهدف الدراسة إلى الكشف عن موقف المستشرقين الغربيين من الدراسات الأدبية العربية القديمة نظرا لأهميتها البالغة في تاريخ الأدب العربي. وتركز الدراسة على تاريخ تطور اللغة العربية، ومناقشة الرأي القائل بأن عمر الشعر العربي القديم لا يزيد على قرنين من الزمان قبل الإسلام. ونجد هذا الرأي منحوتا في المنقوشات القديمة على هيئة مقالات من الحجم الصغير. واعتمادا على هذه الفرضية، ستشير الباحثة إلى آراء المستشرقين في هذه المسألة. ومن المعلوم أن البحوث والدراسات أفادت بأن المستشرقين اجتهدوا كثيرا في جمع المخطوطات والنقوشات الأدبية القديمة فيما يتعلق بملحمة جلجامش، أو الشريعة الحمورابية، أو الإلياذة أو الأوديسة. وستقف الباحثة على مدى علاقة هذه النقوشات بالأدب العربي لإثبات مدى علمية هذا الرأي ومصداقيته وذلك بعرض الشواهد والبراهين وأقوال العلماء متبعة في ذلك المنهج التحليلي التاريخي. ومعلوم أن حضارة وادي الرافدين تشكل أهمية كبرى في تاريخ آداب البشرية. وعلى الرغم من أن معظم الألواح المدونة باللغة السومرية والبابلية التي جاءت إلينا لا يتجاوز عهد تدوينها بداية الألف الثاني قبل الميلاد فإن هذه الآداب المدونة ترجع إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. وإذا قارنا قدم الآداب البشرية وجدناها تسبق في زمن تدوينها جميع ما أنتجه الفكر البشري.

وبالنسبة إلى مصر القديمة مثلا لم يصلنا من أدبها الشيء الكثير لا سيما من عصر الأهرامات، وهو عصر ازدهار الحضارة المصرية ونضجها. وقد اكتشف الآثاريون حديثا في "أوغاريت" المدينة الكنعانية (في سوريا) أدبا كنعانيا يرقى تاريخه إلى حدود 1400 قبل الميلاد أي إلى ما بعد العهد الذي دون فيه أدب وادي الرافدين بأكثر من خمسمائة عام. ومثل هذا يقال على الأدب العبري الذي تضمنته التوراة، فهو متأخر جدا بالنسبة إلى أدب العراق القديم؛ حيث لا يتجاوز زمن تدوين التوراة القرنين السادس

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no1.5
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

والخامس قبل الميلاد. وعلى سبيل المقارنة أيضا فالإلياذة والأودسية يمثلان أقدم نماذج الأدب اليوناني ومثل الإلياذة والأوديسة (الإغريقية) والملحمة الجرمانية Niebelungenlied (الجرمانية) أو المعروفة باسم " أغاني النيبيلونك " (أغاني أرض الظلام) من ملحمة جرمانية شهيرة في القرون الوسطى. وكذلك "الريح–فيدا" (Rig Veda) الممثلة لأدب الهند القديم، و"الأفستا" (Avesta) أو الابستاق (Alabestaq) المتضمنة أدب إيران القديم. فما من هذه الآداب القديمة قد دون ما قبل النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد أي أن زمن تدوين أدب العراق القديم يسبقه بما لا يقل عن ألف عام. ولكنه قد وصل إلينا على هيئته غير الأصلية (S.N. Kramer, 1961, p. 21-30, Taha Baqir, 1986, p.5).

إن اكتشاف ملحمة جلجامش المسجلة حوالي 4000 قبل الميلاد أمر يحتاج إلى إعادة النظر. والسؤال: هل لهذا علاقة بالأدب العربي أم لا؟ وإذا كان هناك علاقة فإلى أي حد وصلت؟ وإذا لم يكن فلماذا؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تشكل صلب القضية في هذا البحث. وللأسف فإن قلة المصادر العربية حول تاريخ الأمم القديمة المتوافرة لدى المسلمين أدت بالباحثين إلى الاستعانة بالمصادر الغربية واليهودية. وفضلا عن ذلك، فإن معظم نقوشات في Mesopotamia التي تم اكتشافها من قبل الخبراء الغربيين، ومنهم البريطانيون والإيطاليون والنمساويون والأمريكيون، وهؤلاء من المستشرقين الذين توجهوا لدراسة الآثار الشرقية، ومنهم جورج سميث (George Smith) البريطاني الذي درس آلاف النقوشات القديمة المحفوظة في المتحف البريطاني، ومعظم هذه النقوشات مأخوذة من نينوى القديمة (S.N. Kramer, 1959, p. 182.).

وقال الخبير سميث عن اكتشافه: إن ملحمة جلجامش تعد من أحسن نماذج أدب العراق القديم[1] (طه باقر، 1956م، 85–86) وهي من أكمل الملاحم القديمة حكاية وقصة خصوصا في روايات

[1] من أشعاره في قصة الطوفان: كما يرويها ((أوتو–نبشتم)) الخالد لجلجامش: (طه باقر، ملحمة جلجامش، من ترجمته النقوش الأصلية إلى العربية في 1956م، ص 85–86)

ركب جلجامش و ((أور–شنابي)) في السفينة
انزلا السفينة في الأمواج وهما على ظهرها
وفي اليوم الثالث قطعا في سفرهما ما يعادل شهرا وخمسة عشر يوما من السفر العادي
وهكذا بلغ ((أور–شنابي)) مياه الموت
وعندئذٍ نادى ((أور–شنابي)) جلجامش وقال له:
هيا يا جلجامش خذ مرديا وادفع به
وحذار أن تمس يدك مياه الموت
أسرع يا جلجامش وتناول مرديا ثانيا وثالثا ورابعا
يا جلجامش خذ ((مرديا)) خامسا وسادسا وسابعا

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no1.5
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

الطوفان التي وردت في التوراة[2] إذ إن معظم المؤرخين وافقوا على أن كلتا الروايتين ترجع إلى حادثة واحدة. وأن حوالي 3,500 آلاف بيت شعري في ملحمة جلجامش قد ترجم إلى اللغة الإنجليزية، ونشره بريطاني آخر هو ر.كمبل تومسن (Campbell Thompson R.) سنة 1930م (S.N. Kramer, 1959, p.183). هذا وقد تأخرت ترجمة روايات ملحمة جلجامش إلى العربية حتى عام 1950م (طه باقر، 1956، ص 31) حينما نشرت مقالة طه باقر وآخر في مجلة "سومر" التي اعتمدت الترجمة الإنجليزية؛ حيث سماها المؤرخون بأوديسة العراق القديم، ونصوصها الأصلية باللغة الأكادية البابلية (عامر سليمان، 1985، ج 1، ص 307)، وقد ترجمت إلى اللغة العربية سنة 1953م. ورأى طه باقر أن هذه الترجمة العربية هي الترجمة الوحيدة من بين جميع التراجم العالمية المشهورة التي تقارب الأصل باللغة الأكادية البابلية بالنظر إلى وشائج القربى الوثيقة بين اللغتين العربية والأكادية البابلية (طه باقر، 1956، ص 31).

ومن المؤسف أن ملحمة جلجامش لم تصبح مثالا يحتذي به أبطال الأمم الأخرى. وقد صرح بهذه القضية ب.لنسدبيجر[3] (B. Landsberger) في مؤتمر علمي بباريس عقد عام 1958م حيث يقول: "... أدركنا أن ملحمة جلجامش أقدم نوع من أدب الملاحم البطولية في تاريخ جميع الحضارات، وإلى هذا فهي أطول وأكمل ملحمة عرفتها حضارات الشرق الأدنى، وليس ما يقرن بها أو يضاهيها من آداب الحضارات القديمة قبل اليونان" (طه باقر، 1956، ص 10). وهذا يدل على اعتراف الغربيين بأن ملحمة جلجامش مصدرٌ للأمم القديمة، وليست الأدوسية ولا الإلياذة لهوميروس (عامر سليمان، 1985، ج 1، ص 273-277).

ويبدو قول كرامر له أساس عندما رأى أن الملحمة تعود إلى حادثة الطوفان المشهورة التي شغلت في هذه الملحمة فصلا مهما بارزا إذ سيقف القارئ بنفسه على مدى الشبه العظيم بين روايات الطوفان لدى الأمم القديمة أطول مما ورد في التوراة، وبين رواية الملحمة لهذا الحدث الذي أثر في عقول أبناء الحضارات القديمة فاقتبست أخباره ورواياته من أدب حضارة وادي الرافدين. والذي اعتمده كرامر حول هذا الطوفان أنه كان في الأصل حادثة تاريخية واقعية حدثت في طيات الماضي البعيد (طه باقر، 1956،

خذ يا جلجامش ((مرديا)) ثامنا وتاسعا وعاشرا

[2] هناك مصادر أخرى لأخبار الطوفان يمكن الاطلاع عليها في المصادر الآتية:

a) A.Heidel, The Gilgamesh-Epic and Old Testament Parallels (Chicago, 1949).
b) M.david, `Le Recit du Deluge et L`Epopee de Gilgamesh`
المنشور في تقرير المؤتمر السابع للمستشرقين في باريس 1958م، المشار إليه سابقًا وفي آخر المقدمة.
c) مقالة لـ طه باقر في مجلة "سومر" 1951م.

[3] أستاذ في علم اللغات القديمة.

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no1.5
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

ص 15) وكانت من جسامة التأثير وفداحته أنها تركت أثرا بليغا في عقول الأجيال المختلفة فتناقلتها بالروايات الشفوية وشوهت تفاصيلها التاريخية بالنظر إلى الشبه الكبير بين رواية الطوفان في ملحمة جلجامش وبين الطوفان في رواية التوراة (طه باقر، 1956، ص 15). غير أنها لم تحفظ للأجيال التالية، لأن الكتابة لم تكن معروفة حينئذ شأنها في ذلك شأن اللغات القديمة الأخرى التي سبقت الإشارة إليها. ومع ذلك كانوا يعدون أن الأوديسة والإلياذة في الآداب الإغريقية أول مصدر من المصادر الأخرى للأمم القديمة (Barry B. Powel, 1991, pp. 9-15, 187-189).

وقد أيد الأديب اللبناني سليمان البستاني في مقدمة تعريبه لإلياذة هوميروس الرأي القائل إن الإغريقيين لم يكونوا يكتبون. فقد كانوا يروون أشعار هوميروس رواية لا كتابة كما في الشعر الجاهلي (لدى العرب)، ولم تدون هذه الملحمة إلا بعد استخدام الحروف الفينيقية. ثم نقلها الإغريق إلى الأبجدية الإغريقية في القرن السادس، ومنها تولدت معظم الأبجديات الأوروبية (ماجد خير بك، 1992م، ص 61). ومن هذه النقوش، أدركنا أن آداب الأمم القديمة لها دور في الجزيرة العربية. وهناك كثير من الملامح القديمة الأخرى مما لم تذكرها الباحثة لأنها تركز على دراسة النقوشات ذات العلاقة القوية بالموضوع وحسب.

ومع ذلك، تحدث الكتاب عن موقف إنجيل برنابا من نظرة لغوية تاريخية حيث نسخة من الكتاب المقدس عثر عليها في تركيا، ويعود تاريخها إلى نحو سنة 1500 للميلاد؛ أثارت الخلاف بين علماء العقائد الإبراهيمية، ولا سيما صلتها بإنجيل برنابا الذي ترجم إلى العربية في مجلة المنار. وقد حافظ علماء المسلمين طويلا على هدوئهم أمام الأهمية اللغوية والتاريخية لإنجيل برنابا وما فيه من التقاطع مع الشريعة الإسلامية، في وقت شاع فيه أن هذا الإنجيل متأثر بالكوميديا الإلهية لدانتي. ومن ثم، غاب أن ترجمته الإيطالية قد تكون عن إحدى اللغات السامية القديمة. ويهدف هذا البحث إلى كشف بعض أسرار إنجيل برنابا وعلاقته مع الكتاب المقدس (العهد الجديد) من خلال منهجية تحليلية مقارنة.

آداب اللغات القديمة وأصحابها

لقد ذكر جورجي زيدان أن آداب اللغة هي "الإنتاج العقلي والشعوري للأمة في مختلف الميادين العلمية والفلسفية والأدبية عبر التاريخ ومع دوراته المختلفة" (جورجي زيدان، 2011، ج1 ص 13). وبعبارة أصح، تاريخ آداب اللغة يصور الجانب الحضاري للأمة في وجوه نشاطها العقلي والفلسفي والأدبي أي أن آداب اللغة لا تقتصر على الشعر والنثر الفني فحسب بل تقف جنبا إلى جنب مع تاريخها السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no1.5
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

ويتولد لدينا سؤال مفاده: من أول من قال شعرا أو اخترع الكتابة أو وضع الأعداد؟ لا خلاف ولا شك في أن المشرق العربي كان الأسبق إلى تدوين العلم من الغرب؛ لأنه قبل اختراع الكتابة لم تكن هناك آداب للغة. والسؤال الآخر من هي الأمة التي دونت العلم أولا؟ إن الإجابة مهمة للغاية؛ لأن أكثر آثار العلم جاءت من المشرق العربي: مصر والشام وما بين النهرين واليمن والحجاز وتوالت بعدها عموم آسيا الصغرى وفارس والهند، وفيها آثار الفراعنة والأموريين والفينيقيين والآشوريين والأكاديين والبابليين والمعينيين والحميريين وغيرهم.

لو رجعنا إلى تاريخ الأمم القديمة لوجدنا أن في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد استوطن الأموريون والأكاديون الساميون بلاد الفرات. وهذه أقدم الهجرات السامية من الجزيرة العربية. وبالعكس، هناك من يقول إن السومريين قد استوطنوا فيها (ماجد خير بك، 1992، ص 12). وزعم بعض الغربيين أن بلاد الإغريق كانت مركز بدء العلوم ومنبع تطور العلوم، كأنهم يريدون نفي وجود أمة أخرى قبل الإغريقيين. ولو رجعنا إلى التاريخ الإغريقي القديم سنجد أن جورجي زيدان قد قسمه على سبع مراحل (جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، 2011، ج1 ص21-22) وهي: العصر الخرافي، وعصر الأبطال (900-700 ق.م)، وعصر بداية التحضر (700-500 ق.م) والعصر الذهبي (500-323 ق.م)، والعصر الإسكندري (323-146 ق.م)، والعصر اليوناني الروماني (146-550 ب.م)، والعصر البيزنطي (550-1453 ب.م). وتركز الباحثة على العصر الخرافي أي ما قبل عصر الأبطال حيث يعد أقدم أزمنة الأمة اليونانية ولم يبق فيها إلا القصص الخرافية (Mythos) عن الآلهة ونحوها.

وهنا يطرح سؤال مفاده: كيف كان العالم الآخر حين كان الإغريق في عصور الظلام والعصور الخرافية؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تحتاج إلى بيان مفهوم تطور الحضارة الإنسانية التي بدأت بوادي الرافدين، كما ذكر آدام فلكنشتاين في مقالته "عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية في غرب آسيا" (جين بوترو، وأوثو ادزارد، وادام فلكنشتاين، 1967م، 21-64). كان محاولة في اكتشاف غرب آسيا القديم مع تسلسل الجغرافية التاريخية الكتابية في بلاد سومر. وغير ذلك مما ذكر د. أوتو ادزارد (Otto Adzard) في مقالته عن "عصر فجر السلالات" (المرجع نفسه،1967م، 21-64) الذي تحدث عن السومريين والساميين في عصر فجر السلالات، ومنها عن التراكيب الاجتماعية: السومريون والأكاديون والأموريون والأقوام البدوية في العصر البابلي القديم والمجتمع البابلي القديم مثل القصر، والمعبد، وقانون حمورابي، والآداب، والمحاولات الفكرية في العصر البابلي القديم. وأما الخبيرة جين بوترو فقد تحدثت عن

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no1.5
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

الإمبراطورية السامية الأولى (المرجع نفسه، ص 99–134) فذكرت بلاد وادي الرافدين مع ما وراء بلاد بابل جنوبا وشرقا وشمالا.

وتحدث طه باقر في كتابه "حضارة وادي النيل" عن تاريخ الجزيرة العربية وبلاد الشام، وعن الساميين في بلاد الشام منهم الأموريون والكنعانيون والفينيقيون والآراميون والعبرانيون والعهود المتأخرة (طه باقر، 1956، ج 1، ص 210–320). فالأموريون كانوا في بلاد الشام مع أولى الهجرات السامية الكبرى التي أطلق عليهم الأقوام السامية الغربية وأطلق على لغاتها "اللغات السامية الغربية". ويميز المؤرخون بين هؤلاء والشعوب الشرقية التي تمثلها اللغة الأكادية وفروعها البابلية والآشورية في العراق واللغات العربية الجنوبية. وأما سكان بلاد الشام فقبل مجيء أولى الهجرات السامية إليها في الألف الثالث ق.م. أي في عصور ما قبل التاريخ التي لا يعرف المؤرخون عنها كثيرا (المرجع نفسه، 1956، ج 1، ص 210–320).

وأما الأموريون فهم أول قوم ساميين حسب أسمائهم الخاصة وأخبارهم التاريخية. ويرجح أيضا أن الكنعانيين جاؤوا إلى بلاد الشام مع الأموريين في هجرة كبرى واحدة. ولكن الأموريين هم الذين اشتهروا بتكوينهم دولا مهمة قبل الكنعانيين. وأول ذكر للأموريين في أخبار ملوك وادي الرافدين جاء في أخبار الملك الأكادي المشهور سرجون مؤسس السلالة الأكادية، والمدينة المشهورة لديهم هي "تل الحريري" كانت من المصطلح السومري مكتوب بـ "مارتو" أو "ماري"[4] في حدود 2350 ق.م. وقد تركز الأموريون في مبدأ أمرهم في الأقسام الشمالية من بلاد الشام ثم أخذوا من بعدئذ ينتشرون في أواسط سورية وفي لبنان حتى امتدوا جنوبا إلى فلسطين (طه باقر، 1959، ص 233).

وقد أسسوا سلالات حكمت العراق مثل سلالة بابل الأولى التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي. ومن هذه السلالة المهمة تأسست في بلاد آشور واشتهرت بملكها "شمس– ادد" أيضا من الساميين الغربيين حوالي 1750 قبل الميلاد. وهناك كشف المؤرخون عن البقايا المهمة في مدينة "تل الحريري" من عهد سلالتها الأمورية كالقصر الملكي الواسع (طه باقر، 1959، ص 235) الذي عثر فيه المنقبون على أكثر من (20,000) لوح من الألواح الطينية المكتوبة بالخط المسماري واللغة الأكادية. ولكن لهجتها تميل إلى السامية الغربية (الأمورية)، وتتضمن أنواعا مهمة من الوثائق والسجلات الملكية ومنها الرسائل

[4] وهي كلمة بالأكادية أمورو.

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no1.5
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

والوثائق التجارية والإدارية الخاصة بأحد ملوك سلالة "ماري" الأمورية المسمى "زمري-ليم" (1730-1700 ق.م) (طه باقر، 1959، ص 235).

ولهذا نجد الصلة قريبة بين الأموريين والكنعانيين (المرجع نفسه، 1959، ص240) أو الفينيقيين كما سماهم اليونانيون حيث إنهم على ما يرجح من قبيلة سامية كبرى نزحت إلى ديار الشام في هجرة واحدة. ويفسر لنا ذلك ما لاحظناه من التشابه اللغوي والقومي بين الأموريين والكنعانيين حيث يصح عد اللغتين الأمورية والكنعانية لهجتين من فروع سلالة اللغات السامية الغربية (أي اللغات السامية في سورية) (المرجع نفسه، 1959، ص240). وقد اختلف المؤرخون حول نشأتها بالدرجة الأولى في الشام حيث الثقافة الأجنبية التي أثرت في الموطن. فالأموريون تمركزوا أولا في شمالي سوريا، وكانوا أكثر تأثرا ثقافيا من حضارة وادي الرافدين حيث دخلت فيهم عناصر من السومريين والحوريين. أما الكنعانيون فإن حقيقة استيطانهم السواحل بالدرجة الأولى جعلتهم يتأثرون من الناحية الثقافية بحضارة مصر (المرجع نفسه، 1959، ص240).

وأما الآراميون[5] فهم خليط من عشائر وقبائل جاءت أسماء بعضها في الكتابات الملكية الآشورية وفي رسائل العمارنة[6] ولا سيما في عهد إخناتون. ولعل الأموريين في الفرات هم الذين أطلقوا هذا الاسم على القبائل الآرامية المتحدة (P.K. Hitti, The History of Syria, 1951, p.162). وقد حدث نزاع بين الآشوريين والآراميين سنة (911-745 ق.م) وبسبب ذلك انتقل الآراميون إلى بلاد الشام حيث أسسوا دويلات مهمة مثل "آرام-نهر ايم" أي آرام النهرين وأصبحت دولا تجارية في الفرات الأوسط وما بين النهرين، وفي مدن الشام منذ نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد حيث استقروا في مواطنهم الجديدة. وهناك دويلة أخرى لديهم سميت بـ "فدان آرام"[7] وهي دولة صغيرة ومركزها "حران" ذات موقع مهم حيث يمر بها طريق تجاري كبير، وازدهرت فيها الثقافة الآرامية ازدهارا كبيرا.

لقد جاء في المآثر العبرانية أن الآباء اليهود الأول جاؤوا من هذه الجهة قبل استيطانهم فلسطين حيث تزوج النبي إسحاق عليه السلام من امرأة حرانية (اسمها رفقة)، وكما أرسل ابنه النبي يعقوب عليه السلام إلى حران حيث تزوج "ليئة" (Leah) و "راحيل" (Rahel) (سفر التكوين 24: 4، 29: 21). وفي القرن الحادي عشر ق.م. أسس الآراميون الدولة التي صارت عاصمتها في دمشق وعرفت باسم "آرام

[5] ومن الآراميين فرع تغلغل إلى وادي الفرات الأسفل وعرف باسم "كلدو" وهم الكلدانيون الذين أسسوا الإمبراطورية البابلية الأخيرة.

[6] اسم المنطقة لها الحكومة القديمة.

[7] كلمة "فدان" مثل فدان العربية وتعني الحقل والسهل.

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no1.5
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

دمشق" (ماجد خير بيك، 1992، ص 29). فتبين لنا هذه الأحداث الصلة بين العبرانيين والآراميين. لذا وجدنا آثارا ثقافية آرامية في لغة سفر التكوين من ناحية التعابير والمفردات اللغوية وظن كنوتزون (Kanutzon) أن أجداد العبرانيين قد تكلموا الآرامية قبل استيطانهم في فلسطين واتخاذهم اللهجة الكنعانية المحلية (P. Hitti,1951, p.164).

ومن هذا الكلام المختصر عن تطور العالم أو الأمم الأخرى غير الإغريقية نجد أن الدول القديمة قد استوطنت وتقدمت سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، بل إن هناك دلائل من المنقوشات والمنحوتات كشفت عنها. وللأسف لم تعد المنقوشات والمنحوتات القديمة من الأدلة العلمية في تحقيق وجود تاريخ الأمم القديمة التي كانت لها لغات وآداب وكتابات شعرا ونثرا كما في ملحمة جلجامش، بل وإن أول الكتابات اليونانية أخذت من المشرق العربي أي أنها تأثرت بالكتابة الفينيقية[8] كما ذكر باري ب. باول (Barry B. Powell) بقوله: "وجاءت الكتابة السامية الغربية لتشمل فرعين: شمال غرب سامية (الفينيقية والكنعانية والعبرية والآرامية، السامرية) وجنوب غرب سامية (شمال العربية، العربية الجنوبية، الأثيوبية). في حين أن الكتابة الفينيقية هي مجموعة فرعية من الكتابة الغربية (Semitic)، وهي أيضا شكل من أشكال الكتابة. فالسامية تشهد لها نقوش كاملة..."[9](Barry B. Powell, 1991, p. 9.) . ومن ثم يعزز باري ب. باول (Barry B. Powell) ما ذهب إليه بقوله: "هذه العبقرية من الجنس البشري اخترعت الأبجدية اليونانية من خلال التكيف مع حروف الأبجدية الفينيقية..."(Barry B. Powell, 1991, pp. 12-13)

ويتضح لنا من الأقوال السابقة أن بداية الكتابة الإغريقية قد تأثرت باللغة الفينيقية في المشرق العربي، بمعنى أن الكتابة اليونانية الأصلية مصدرها من اللغات السامية الغربية التي جاء بها الكنعانيون (D.S Margoliath, 1924, p. 9). طبعا هناك رفض من بعض الغربيين المعتزين باللغة الإغريقية وفلسفتها. أما عن الموقف تجاه اللغة العربية، هل كان للعرب قبل الإسلام لغات؟ وهل لغات مثل المعينية والسبئية والحميرية والصفوية والثمودية واللحيانية وأمثالها هي لغات عربية؟ لو جاءت الإجابة بنعم، فلماذا اختلفت

[8] كما ذكرت الباحثة في مقدمة الكتاب.

[9] *"West Semitic writing came to include two Branches: Northwest Semitic (Phoenician, Canaanite, Hebrew, Aramaic, Samaritan) and Southwest Semitic (North Arabic, South Arabic, Ethiopic). Derivatives of the script are still today preferred by Semitic speakers. While Phoenician writing is a sub-group of 'West Semitic' writing, it is also the form of West Semitic writing which is earliest attested by complete inscriptions. Among extant Phoenician inscriptions, in a repertory of signs clearly antedating the Greek, signs appear with similar shapes to those of the earliest Greek inscriptions".* Barry B. Powell, Homer and the Origin of the Greek Alphabet, p. 9.

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no1.5
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

هذه اللغات كثيرا عن عربية القرآن الكريم حتى عجزنا عن فهم كتاباتها كما جاءت في النقوش؟ وإذا كانت من لغات الأعاجم، فكيف نتأكد من هذه الحقيقة الغامضة؟

تقويم النقوش العربية

لقد أشار سعيد الغانمي إلى أن المستشرق الإنجليزي أ.ف.ل بيستون (A. F. L. Beeston 1911–1995م) والذي له مكانة خاصة بين المستشرقين الذين اهتموا بدراسات العربية الجنوبية؛ لأنه صاحب الدراسات الأدبية الكثيرة التي تركز على قراءة النقوش اليمنية القديمة منها نقوش سبئية ومعينية وقتبانية. وتقف بحوثه شاهدة على هذا الاهتمام بالدراسات التفصيلية حيث قرأ عددا من النقوش منذ بواكير الخمسينيات من القرن الماضي منها "التقويم في النقوش العربية الجنوبية" 1956م، و"قواعد وصفية للنقوش العربية الجنوبية" 1962م. وفي 1995م صدرت ترجمته العربية في الأردن بقلم رفعت هزيم، ونشرت صيغة معدلة منها ضمن كتاب بعنوان: "مختارات من النقوش اليمنية القديمة"، وتوج ذلك بإخراجه "المعجم السبئي" الذي صدر عن دار منشورات بيترز لوفان (Peters Louvain Publication) بالتعاون مع مكتبة لبنان في بيروت 1982م. وتساعد هذه المنشورات على دراسة التقاويم العربية القديمة التي بدأها أنيس فريحة 1988م في كتابه "أسماء الأشهر والأعداد والأيام وتفسير معانيها." وأيضا قد حاول تقديم تفسير لأسماء الشهور العربية الثمودية ولكن هناك أدلة مشكوك في صحتها (أ.ف.ل بيستون، 2009، ص6).

ويرى بيستون (Beeston) أن قوة العصبية بين القبائل قد أدت إلى العصبية سياسيا واجتماعيا ولهجيا وثقافيا ودينيا. ومن طبائع الأشياء أن العصبيات أدت إلى تغير اللهجة والديانة والثقافة. ومن هذه التغيرات تقاويم متعددة تعد الدول والعصبيات الحاكمة فيها (المرجع نفسه، ص 8). وأشار بيستون في بحثه عن مسألة تقسيم "الشهر" لدى العرب الجنوبيين لم تكن في معرفتهم أنها قسمت إلى أربعة أقسام، ويشكل كل قسم منها ما نطلق عليه "أسبوعا." وجاءت هذه الفكرة من اختراع البابليين كما قال سارتون: "إن هناك اختراعا يعزى غالبا إلى البابليين، لكنه في الواقع ينسب لتاريخ متأخر، وأقصد هنا اختراع الأسبوع. وهكذا قسم البابليون الشهر أقساما ثانوية، كل منها سبعة أيام، لكن هذه الأسابيع لم تكن مستمرة مثل أسابيعها، بل تحتم أن يكون اليوم الأول من كل شهر هو اليوم الأول من الأسبوع الذي يقع فيه" (المرجع نفسه، ص9 و13).

تاريخ موجز عن تقعيد اللغة العربية

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no1.5
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

يرى بعض الباحثين أن أصل الخط العربي الحديث يعود إلى الكتابة الآرامية النبطية وأن العرب اقتبسوها عن أسلافهم الأنباط وذلك للشبه الكبير بين الكتابتين. وقد بنى الباحثون استنتاجاتهم هذه من دراسة واسعة ومتأملة لبعض النقوش النبطية والعربية التي وصلت من حقبة سابقة للإسلام المجيد. وقد توصلوا إلى نتيجة مفضية أن الخط العربي قريب الشبه من الخطوط النبطية المكتشفة في البتراء ومدائن صالح وفي سيناء وغيرها من الأقاليم. ويفسر بعض كيفية اشتقاق الخط العربي من النبطي بأن الأخير المشتق من الآرامية أصبح يبتعد شيئا فشيئا عن أصله الآرامي حتى تميز عنه وأصبح يعرف بالخط النبطي والذي بدوره تطور أيضا في حدود القرن الثالث الميلادي إلى الخط المألوف في لغة عرب الشمال وما نسميه بلغة العصر الحاضر. وقد دلت أحدث البحوث في فقه اللغة التاريخي المقارن أن اشتقاق الخط العربي كان من الخط النبطي. وقد كان الرأي العام عند العلماء لا يفترق عما جاء في المصادر العربية عن أصل الخط العربي حتى ظهرت النقوش النبطية المؤرخة بالقرنين الثالث والرابع الميلادي والتي دلت على تطور الخط النبطي وبدأ في نظام وصل الحروف كما يظهر من النقوش النبطية السينائية ونقوش النمارة وأم الجمال وكذلك ظهور نقوش أخرى مثل زبد وحران في القرن السادس واتضح أن الخط العربي في بداياته قريب الشبه بالخط النبطي المتأخر.

ويرى آخرون أن اللغة العربية كانت خالية من التأثير الأجنبي وأن قواعدها نشأت من العرب أنفسهم. وسوف نناقش مفهوم النحو في اللغة العربية ابتداءا من الجزئي إلى الكلي بعكس المفهوم المنطقي في انتقال أرسطو من الكل إلى الجزء (مهدي المخزومي، 1986، ص63- 64). إن كلمة (نحو) التي تعني حرفيا النية، أو الطريق أو الاتجاه، حصل لها بمرور الزمن تطور دلالي، وأصبح لها استعمال خاص يدل على علم النحو. ولكنها ليست الكلمة العربية الوحيدة التي قيد استعمالها الدلالي بعلم معين. فكلمة فقه تعني المعرفة أو الإدراك، وتطورت دلالتها ليتم استخدامها للإشارة إلى فرع خاص من العلوم الإسلامية، وهو الفقه أي فلسفة التشريع (علوش، جميل، 1980، ص17).

إن المعلومات المتعلقة بالكيفية التي أصبحت فيها كلمة (النحو) مصطلحا فنيا، أو كيفية نشوئها في بادئ الأمر، أو من يرجع إليه الفضل في تطوير هذا العلم غامضة جدا. فعلى الرغم من إشارة أغلب الروايات إلى الدور الريادي لأبي الأسود الدؤلي، أو الإمام علي رضي الله عنه الذي تشير بعض الروايات إلى كونه من ألقى العلم إلى أبي الأسود، (الجرجاني، عبد القاهر، د.ت، ص78؛ السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله، 1985، ط1، تحقيق محمد إبراهيم البنا، مصر: دار الاعتصام، 1985م، ص34-37؛ أبو الطيب اللغوي، 1955، ص27؛ وضيف، شوقي،1995، ص13-15) إلا أن المعلومات والروايات متضاربة وغير مطردة إذ تقول إحدى هذه الحكايات إن أبا الأسود الدؤلي قد رأى ورقة كتب

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no1.5
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

عليها إن كل الكلام يقع تحت ثلاث فئات وهي الاسم والفعل والحرف (الأنباري، 1967، ص4) وقال له الإمام كرم الله وجهه "انح هذا النحو وأضف إليه ما وقع إليك" واستجابة لطلب الإمام علي بتدوينها، قام أبو الأسود بكتابة فصلين عن العطف والنعت (ضيف، شوقي، 1995، ص5) أتبعهما بفصلين آخرين في التعجب والاستفهام (المرجع نفسه، ص15) واستمر حتى وصوله إلى فصل إن وأخواتها، (الأنباري، 1967، ص5) ولكنه لسبب أو لآخر نسي أن يشمل "لكن."

وعندما اطلع الإمام علي كرم الله وجهه على العمل طلب من أبي الأسود أن يشملها. بعد ذلك، قدم أبو الأسود كل فصل كتبه إلى الإمام علي فقال له: "ما أحسن هذا النحو الذي نحيته"، وقيل إن هذه المناسبة هي أصل استخدام كلمة النحو بالمعنى الاصطلاحي، وقيل أيضا في هذا الصدد إن الدافع وراء طرح المبادئ الأساسية للغة العربية من الإمام علي كرم الله وجهه كان سماعه لأعرابي يقرأ الآية القرآنية الكريمة: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ (الحاقة:37.)، بشكل غير صحيح إذ كان يقرؤها (لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئِينَ). (المرجع نفسه، ص 8) وهناك حكاية أخرى تربط أبا الأسود بالنحو وتجعل قصتها سببا لبداية عمله النحوي حين قالت له ابنته: يا أبت ما أحسنُ السماء! فقال نجومها. فقالت له: لم أرد أي شيء منها أحسن؟ إنما تعجبت من حسنها. فقال لها: قولي إذا: ما أحسنَ السماء! ثم دفعه ذلك إلى التفكير في وضع النحو، وابتدأ بباب التعجب. (السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله، 1985، ص36)

الخاتمة

ونستخلص مما تقدم أنه لا فرق كبير بين اللغة العربية اليوم وكتابة قديمة معظم أصواتها وكتابتها ونظام قواعدها من حيث الإفراد والتثنية والجمع والمذكر والمؤنث والضمائر والأرقام كأنها لغة واحدة. نعم، هناك تمييز من حيث الكتابة الإملائية بسبب طبيعة لغات العالم ليست كاملة وشاملة قواعد وكتابة؛ لأن توسيع اللغة وتوليدها وتحويلها تفتقر إلى تطور الفكير. وهنا نصل إلى مسألة مهمة لا بد من الإشارة إليها ألا وهي أن الفكرة طبيعتها متطورة شيئا فشيئا. إن تطور اللغة مثل تطور الإنسان. على سبيل المثال، الطفل الصغير لا يستطيع أن يتكلم لغة القواعد بل يكتفي بالإشارة بالصوت الملموس معبرا عن حاجته إلى شيء ما وذلك بالاتصال غير اللغوي لأن ثقافته وقدراته الفكرية وحصيلته اللغوية لسيت على مستوى التقعيد اللغوي أو التفنين فهكذا هنا. إن اكتشافات أثر حضارة الإنسان في وادي الرافدين إشارة واضحة إلى أهمية جهود المستشرقين في إبراز المنقوشات والمنحوتات في الجزيرة العربية. نعم، دون شك لهم أهداف خاصة غير الأهداف المعلنة، بل كل المعلومات التاريخية عن الأمم القديمة هي بأيديهم، وكأنهم وحدهم هم

Al-Ḍād Journal
DOI: https://doi.org/10.22452/aldad.vol6no1.5
e-ISSN: 2637-1146
https://ejournal.um.edu.my/index.php/aldaad/index

الذين يملكون المصادر الأساسية للأمم القديمة فأين المسلمون من هذا المجال؟! وكيف نلزم أنفسنا بأشياء ما قبل بعثة رسول الله ﷺ؟!

References

A.F.L. Beeston & T.M. Johnstone in the book of `Arabic Literature To The End of The Umayyad Period`, Cambridge University Press: Cambridge, 1983.

Al-Jurjani, Abdu al Qahir. (1998). *Dala`il al-Ijaz*, edit As-Sayyid Muhammad Rashid Reda, Cairo: Dar al-Manar.

Amir Sulayman. (1985). *Al-Turath al-Lughawy* in Encyclopedia of Iraq Civilization. Baghdad: Open Publication.

As-Sirafi, Abu Said al Hasan Bin Abdullah. (1985) *Akhbar an-Nahwiyyina al-Basriyyina*, edit Muhammad Ibrahim al-Bana, Egypt: Dar al Itisam.

Barry B. Powell, Homer and the Origin of the Greek Alphabet, Cambridge: Cambridge University Press, 1991.

D.S Margoliath, The Relation Between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam, London: British Academy, 1924.

Jamil Alush. (1980). *Al Anbari Wa Juhuduhu Fi An Nahwi*. Beirut: ad-Dar al Arabiyyah al Kitab.

Jane Potter et al. (1967). *As-Shirq al-Adna al-Hadharat al-Mubakirah*. Trans. Amir Sulayman. Britain: Del Publisher.

Jawad Ali. (1976). *Al-Mufassal Fi Tarikh al-Arab Qabla al-Islam*. Volume 1. Baghdad: Jamiah al-Baghdad.

Jurji Zaydan. (2011). *Tarikh al-Adab al-Lughah al-Arabiyah*. Volume 1. Cairo: Dar al-Hilal.

Magid, Khair Bik. (1992). *Al-Lughah al-Arabiyah Juzuruha, Intisharuha wa Ta`thiruha. Fi as-Sharq wa al-Gharb*. Damascus: Dar as-Sa`duddin.

Mahdi Al-Makhzumi.(1987). *Ad-Darsu an-Nahwi Fi Al-Baghdadi*, Beirut: Dawr al-Raid al-Arabi

P.K. Hitti, t.th.. The History of Syria. http://www.questia.com/PM.qst?a=0&d. pagansquare.tumblr.com. Retrieved at 17 August 2018.

Said al-Ghanimi. (2009). *Yanabi` al-Lughah al-Ula*. Abu Dhabi: Al-Imarat al-Arabiyyah al-Mutahidah.

Samual Noah Kramer. (1959). *History Begins At Sumer*, USA: Samuel Noah Kramer.

Shawqi Daif. (1995). *Al-Madaris an-Nahwiyyah*, Cairo: Dar al Ma`rif.

Taha Bakir. (1986). *Milhamah Gilgamesh.* Baghdad: Dar As-Shuun at-Thaqafiah al-Amah.

Taha Baqir. (1956). *Muqaddimah Fi Tarikh al-Hadharat al-Qadimah – Hadharat Wadi al-Nayl*. Baghdad: *Open Publication.*